العلوم العقلية والبحث العلمى والمؤسسات الإسلامية البائدة

رواد البحث العلمى الإسلامى:

لم ينل رواد الحضارة الإسلامية الذين انصهروا فى البوتقة الإسلامية (عرب، وفرس، وروم، ويهود، وصابئة، ونصارى، ومسلمين ممن شملتهم الدائرة الإسلامية) حقهم من ذيوع الصيت، والاحتفاء بأسمائهم بما يتناسب مع ما قدموه من خير للإنسان على الأرض، وذلك لجهل، أو تجاهل المؤرخين، وكُتَّاب سير الأعلام بقيمة ما قدموه من دراسات، وابتكارات، ولاهتمامهم المزمن بالفقهاء، ورجال الدين الذين تعاونوا معهم على تحويل الدين من قيم تسمو بالروح البشرية، إلى كهانة عنصرية لا تتجاوز أركان المساجد التى بالغوا فى مساحاتها، وزينتها، وأنفقوا عليها من مال المسلمين الذين كانوا أحوج لهذه الأموال، والنفقات، ثم ألحقوا بها المدارس التى عززت من انقسام المسلمين، وتفرق دمهم بين المذاهب، وأربابها حتى انحرفوا عما جاء من أجله الدين؛ وهو عبادة الله الأحد إلى عبادة الدين الأحد، ومن تنفيذ أحكام الله إلى تنفيذ أحكام جاء بها أقنان المذاهب، وكهنة الدين..

ثم وقع عليهم الظلم تارة أخرى من هؤلاء الذين استفادوا من هذا التراث العلمى اللقيط، وأقاموا عليه حضارتهم الدائمة إلى يوم الدين - فى غير مراعاة لأمانة العلم - عندما لم يلقوا بالا لأصحابه، وعندما غفل عنهم علماؤهم، ومؤرخوهم عمدا، أو جهلا، أو تقاعسا فوقع هؤلاء الرواد العظام فى الظلم مرتين بين جهل، وجهل، جهل أمة خرجت من التاريخ مبكرا ظنا منها أنها اختارت الآخرة وهى ما زالت فى الدنيا، وجهل أمة أخذت من العلم أسبابه، ولم تؤد أمانته، فضاعوا بين هؤلاء وأولئك، ولا عزاء..

وأخيرا بعد أن هدأ صراع الشرق، والغرب، ودالت لهذا الغرب ريادة العالم الحديث - بما فيهم

obeikandl.com

المسلمين - أقر مؤرخوه المحترمون بالإنجازات العلمية المدهشة فى العصر الإسلامى من أمثال «جورج سارتون »George Sarton فى موسوعته عن «تاريخ العالم» التى قال فيها:

-«كانت اللغة العربية هى لغة العلم، ولغة التقدم للبشرية من النصف الثانى للقرن الثامن، وإلى نهاية القرن الحادى عشر، وتكفى الإشادة ببعض الأسماء اللامعة التى لم يكن هناك من يضاهيها فى الغرب مثل؛ جابر بن حيان، والكندى، والخوارزمى، والفرغانى، والرازى، وثابت بن قرة، والبتانى، وحنين بن اسحق، والفارابى، وابن سينا، والمسعودى، والطبرى، وأبو الوفا، وعلى بن عباس، وأبو القاسم، وابن الجزار، والبيرونى، وابن سنان، وابن يونس، وابن الهيثم، وعلى بن عيسى، والغزالى، والزركلى، وعمر الخيام، فإذا قال لك أحد إن العصور الوسطى كانت عقيمة علميا فاذكر لهم هؤلاء الرجال الذين بزغوا فى فترة قصيرة ما بين 750 إلى 1100م»..

كذلك نشرت مجلة «الطبيعة» العلمية المرموقة(Nature) فى أحد أعدادها الحديثة مقالا يحمل نفس وجهة النظر:

- «أضاف العلم الإسلامى الكثير إلى العلم؛ حين كان فى ذروته منذ حوالى ألف عام خاصة فى مجال الرياضيات، والطب، وشيدت الجامعات التى توافد عليها الآلاف فى بغداد أثناء ازدهارها، وفى جنوب إسبانيا، وأحاط الحكام أنفسهم بحلقات من العلماء، والفنانين كما سمحت روح الحرية بعمل اليهود، والمسيحيين جنبا إلى جنب، أما اليوم فقد أصبح كل ذلك فى عداد الذكريات»..

ويقول «البارون كارا دى فو Baron Cara de Vaux» فى الفصل الذى عقده على تراث العلماء المسلمين فى الرياضة، والفلك:

- «إن هؤلاء العلماء كانت لهم عقول طليقة، مولعة بالبحث عن الحقيقة، فلم يحجموا عن نقد بطليموس، وصرحوا مع ابن رشد بمناقضتهم لمذهب تداخل الأفلاك، وتركزها، وإيثارهم لما هو أبسط، وأقرب إلى الطبيعة، وقرر البيرونى آنفا أن النظريات الفلكية كلها نسبية»..

ويقول توبى هَف Tuby E.Huff فى كتابه «فجر العلم الحديث»:

- «أما هنا فينصب اهتمامنا على أن العلم العربى من القرن الثامن(الميلادى) حتى آخر القرن الرابع عشر ربما كان أرقى علم فى العالم، متفوقا بذلك على العلم فى الغرب، والصين، وكان العلماء العرب فى كل حقل تقريبا - فى الفلك، والسيمياء(تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة)، والرياضيات، والطب، والبصريات وما إليها – فى طليعة التقدم العلمى(والمقصود بالعلماء العرب أشخاص يقطنون الشرق الأوسط، ويستخدمون اللغة العربية بالدرجة الأولى، ويضمون العرب،

والفرس، والمسيحيين، واليهود وغيرهم)، وكانت الحقائق، والنظريات، والتصورات العلمية التى تضمها رسائلهم العلمية أرقى ما يمكن الحصول عليه فى أى مكان من العالم، بما فى ذلك الصين»..

كان العلم العربى الإسلامى أكثر تقدما حتى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، أما مرحلة العلم الحديث، وانتشاره فى أوروبا فقد كان فى القرنين السادس عشر، والسابع عشر..

اشتهر الأطباء العرب بدقة الملاحظة؛ فأضافوا كثيرا إلى ما تعلموه، ودونوه فى كتبهم، وابتكروا آلات جديدة من أجل الجراحة، فبرزوا فى كل فروع الطب ماعدا علم التشريح الذى لم يتجاسروا فيه كثيرا لحرمة أجساد الموتى حسب أحكام الشريعة، وللاعتقاد الذى كان سائدا وقتها من أن الروح لا تفارق الجسد مباشرة، ولكنها تبقى عالقة به فترة من الزمن، علاوة على نظرتهم الإنسانية، والدينية للجسد الإنسانى فلجأوا إلى التشريح المقارن للحيوان لتشابه وظائف الأعضاء لدى الإنسان، والحيوان إلى حد كبير.

استغل المسلمون معرفتهم بأساليب الترقيم الهندية فابتكروا النمط المتداول الآن للتعبير عن الأرقام العشرية، وتوصل «جامشيد الكاشانى Jamshid Kashani» إلى نظرية ذات الحدين Bio-nomial theory عام 832هـ - 1429م، وسبق بها نيوتن بحوالى 700 سنة، وهو أول من حدد قيمة النسبة بين محيط الدائرة «ط»، ونصف قطرها «نق» بدقة بالغة، كما قام أبو الوفا بتأسيس قانون جيوب الزوايا Sines فى حساب المثلثات، ونظم الخوارزمى دراسة المعادلات الرياضية من خلال دراسته للجبر، وابتكر عمر الخيام حلا هندسيا للمعادلات التكعيبية..

يقول «توبى هَف Tuby E.Huff» فى كتابه فجر العلم الحديث:

- «لكن ما لا مراء في أهميته العظيمة هو أن علم المثلثات – وهو جزء أساسى من الرياضيات لتطوير علم الفلك - علم اخترعه العرب، ولم يتطور عند الصينيين على الإطلاق، ولقد استخدم الصينيون الفلكيون العرب فى المكتب الفلكى الصينى فى بكين منذ القرن الثالث عشر فصاعدا لتعويض هذا النقص»..

وفى البصريات كان ابن الهيثم أول من اكتشف بعض الظواهر البصرية المتعلقة بالعدسات، وانعكاس الضوء، وكيفية الإبصار..

وفى الكيمياء القديمة Alchemy قام جابر بن حيان، والرازى بتطويرها بعد الخرافات التى لحقت بها على يد آريوس Arius، وفيثاغوراس Pythagorus، ولكنهما لم يعترضا على مقولة حجر الفلاسفة التى انحرف هذا العلم بسببه عن مساره نحو الطلاسم، والخرافات من أجل الحصول

عليه بتحويل العناصر المتداولة مثل النحاس، والقصدير إلى العناصر النادرة مثل الذهب، والفضة، ورغم ذلك من الممكن القول بأن هذه المقولة كانت هى المحرك الأول لبزوغ فجر الحضارة الأوروبية الحديثة؛ التى بدأت على أيدى المغامرين من أجل الحصول على الذهب عن طريق ارتياد الآفاق، فبدءوا رحلاتهم إلى المجهول، وكان حافزهم هو الحصول عليه، واعتمدت عليه دولهم التى انبعثوا منها؛ بعد أن شجعتهم على ذلك كالبرتغال، وأسبانيا فجلبوا منه الكثير من دول العالم الجديد(الأمريكتين)..

أما الموجة اللاحقة من الإنجليز، والفرنسيين فقد وجدوا أن الذهب ليس كل شىء، ومصيره إلى النضوب، وهناك من السلع ما هو أكثر أهمية من الذهب، وأنفع لو أحسن استخدامها، وتسويقها فبدأت الثورة الصناعية فى إنجلترا بتصنيع الخامات التى حصلوا عليها من البلاد الجديدة، وتصريف منتجاتها بين شعوب مستعمراتهم التى حرصوا على احتلالها الواحدة تلو الأخرى بعد تكوين الشركات الكبيرة مع رؤساء القبائل الذين غرتهم الأموال الكثيرة، ومن ثم كانت الكيمياء القديمة هى الحافز الأوروبى الأول للحصول فى البدء على الثروة، فجاءت إليهم الحضارة تسعى، وظلت معهم إلى يومنا هذا، بينما غاص المسلمون العثمانيون إلى رقابهم فى الغزوات، والتوسعات فى بلاد أنفقوا فيها أموال المسلمين الطائلة، ثم خرجوا منها صاغرين..

ومع هذا فقد استفادت الكيمياء الحديثة كثيرا من الكيمياء القديمة إذ تعرف العلماء على أهمية خلط العناصر بمقادير محددة، وعرفوا التقطير، والتسامى، والتصعيد، والفصل، والترشيح، والترميد، وتعرفوا على خصائص الأحماض، والقلويات، والأملاح وغيرها..

ومنهم من أشار إلى التطور، ونشوء وارتقاء الأحياء فى الخلقة، والتكوين قبل دارون، وسبنسر؛ فيقول الفارابى فى «مدينته الفاضلة» عند شرحه لآراء أرسطو:

- «إن ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولا أخسها، ثم الأفضل فالأفضل»..

وفى كتابه «عجائب المخلوقات» يقول القزوينى:

- «فإن المعادن متصلة أولها بالتراب، أو الماء، وآخرها بالنبات، والنبات متصل أوله بالمعادن، وآخره بالحيوان، والحيوان متصل أوله بالنبات، وآخره بالإنسان»..

ويتكلم إخوان الصفا فى «رسالتهم العاشرة» عن النظرية التى يُطلق عليها فى عصرنا هذا «الإبدال والإهمال» حيث تضمر الأعضاء غير المستخدمة فى الأحياء مثل الزائدة الدودية فى الإنسان كعضو أثرى:

- «الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه فى وقت جر المنفعة، أو دفع المضرة، لأنه لو أعطاه ما لا يحتاج إليه كان وبالا عليه فى حفظه، وبقائه»..

ويقول ابن مسكويه فى «تهذيب الأخلاق» عن الوسائل الدفاعية للحيوان:

- «إن كان ضعيفا لم يعط سلاحا البتة، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو، والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه، وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى مجرى الرماح، والذى أعطى الأنياب، والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين، والخناجر»..

ويقول عن أقرب الحيوانات إلى الإنسان:

- «وهو الذى يحاكى الإنسان من تلقاء نفسه، ويتشبه به من غير تعليم كالقردة، وما أشبهها، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الإنسان يعمل عملا فتعمل مثله»..

وهو هنا قد اقترب ظاهريا بالشبه الذى بين الإنسان، والقرد، فبدا رائدا لنظريات عصرنا الذى توسع فى الكشف، والتقصى، وتعدد علوم الحياة..

وقد أدلى ابن خلدون - فى عصر الاضمحلال - بدلوه فى ذلك أيضا بملاحظاته الثاقبة، واطلاعه الواسع بما لا يخرج كثيرا عما ذكره سابقوه فيقول:

- «واتسع عالم الحيوان، وتعددت أنواعه، وانتهى فى تدريجه التكوينى إلى الإنسان صاحب الفكر، والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس، والإدراك، ولم ينته فيه الفكر، والروية بالفعل، وكان ذلك أول أفق الإنسان من بعده، وذلك غاية شهودنا»..

المؤسسات الإسلامية البائدة:

١ - بيت المال:

لم يخرج التشريع الاقتصادى الإسلامى فى مؤسساته عن «بيت المال» الذى كان دائما فى حوذة الخليفة دون رقيب، أو حسيب، ولم يكن لديهم وسيلة أخرى لابتكار مؤسسات مالية قوية؛ كالتى قامت فى أوروبا توجه رؤوس الأموال نحو الصالح العام، فأصبحت الشريعة منظومة ثابتة من القواعد الحجرية الراسخة غير قابلة للحركة فى أى اتجاه مع الحركة السريعة جدا لاقتصاد السوق،

بعد أن ترك المسلمون شريعتهم للأربعة الكبار الذين تتابعوا فى فترة زمنية محدودة امتدت من (150هـ - 767م) إلى (241هـ - 855م) بداية بأبى حنيفة، وانتهاء بابن حنبل، وهم الذين ارتضاهم المسلمون ليضعوا عقولهم فى ثلاجاتهم إلى يومنا هذا، كما وضعوا نصوصهم فى مصاف النصوص المقدسة كنصوص القرآن تماما بحيث لا يصح الاقتراب منها، أو الاستدراك عليها، فأغلقوا باب الاجتهاد نهائيا مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى(الخامس الهجرى)، فليس فى الإمكان أفضل مما كان، وفى ذلك يقول الأفغانى:

- «القرآن وحده سبب الهداية، أما ماتراكم عليه، وتجمع حواليه من آراء الرجال، واستنباطهم، ونظرياتهم فينبغى ألا نعول عليها كوحى، وإنما نستأنس بها كرأى، ولا نحملها على أكتافنا مع القرآن فى الدعوة إليه»..

٣ - المستشفيات والبيمارستانات:

لاحظ الدارسون للطب العربى الاحترام الكبير للطبيب فى البيئة العربية بشكل عام سواء فى الوسط اليهودى، أو المسيحى، أو الإسلامى، وشغل أطباء الدولة الإسلامية المناصب العليا فى الإدارة الحكومية، ولم يميز خلفاء الدولة الإسلامية الأطباء حسب أديانهم؛ رغم ماكان يثيره بعض الفقهاء من انتقاص للأطباء غير المسلمين، وكان الطب عادة يقترن بالفلسفة، فكثيرا ماكان الطبيب فيلسوفا كابن سينا، ولكن الأطباء العرب اعتمدوا على مهنة الطب غالبا فى معاشهم، وكانت المستشفيات، والبيمارستانات هى أماكن ممارسة هذه المهنة، وعلاج المرضى جسديا، وعقليا بما كانت تحتويه من مساعدين كالمجبِّرين، والكحَّالين، والفصَّادين، والحجَّامين، والجرَّاحين، والصيادلة..

كانت المساجد، والتكايا، والقباب، والمدارس، والبيمارستانات يبنيها السلاطين، والخلفاء، والأمراء، وأهل الخير، وهى معاهد علمية لطلبة العلم، وتدريب طلبة الطب إلى جانب مداواة المرضى، وكلها عبارة عن مؤسسات فردية(ليس لها علاقة بالدولة، أو السلطان إلا بموافقة قاضى القضاة على نوع الدراسة، وشروط الوقف التى تتماشى مع الشريعة الإسلامية) مرتبطة بأوقاف للإنفاق عليها، ومدير للإشراف على سير العمل فيها، ومراقبته لشروط الوقف بموجب مرتب يتقاضاه من أموال هذه الأوقاف..

والبيمارَسْتانات(بفتح الراء، وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من (بيمار) بمعنى مريض، أو عليل، أو مصاب، و(ستان) بمعنى مكان، أو دار، ثم اختصرت الكلمة إلى مارستان، وكانت فى أول استخدامها تعنى المستشفيات لعلاج جميع الأمراض الباطنية، والجراحية، والرمدية، والعقلية، فلما أهملت فى العصور المتأخرة هجرها المرضى ماعدا المجانين الذين لم يجدوا مأوى لهم سوى هذه المستشفيات المهجورة، فصارت الكلمة تعنى مأوى المجانين..

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها:

-«أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق؛ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة فى مسجده يعوده من قريب»..

ويروى ابن اسحق فى السيرة:

-«كان رسول الله قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم؛ يقال لها رُفَيْدة فى مسجده؛ كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضبعة من المسلمين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوم حين أصابه السهم بالخندق:

- اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»..

ويقول المقريزى:

- «أول من بنى البيمارستان فى الإسلام، وداوى المرضى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك سنة(88هـ - 706م)، وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذّمين(المصابين بالجُذام) لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم، وعلى العميان الأرزاق»..

٣ - المراصد:

استطاع الفلكيون، والرياضيون العرب العاملون فى مرصد مراغة غرب فارس، وعلى رأسهم «ابن الشاطر» مؤقت الجامع الأموى بدمشق تحسين النظام البطلمى المعتمد على مركزية الأرض، بحيث غدا معادلا رياضيا أخذ عنه كوبرنيكوس نظامه المعتمد على مركزية الشمس، وهو ما دعا البعض إلى القول بأن «كوبرنيكوس» من أشهر أتباع مدرسة مراغة، إن لم يكن آخرهم..

ومرصد مراغة الذى أداره «نصير الدين الطوسى» هو مدرسة فلكية ضمت علماء مثل الأُردى(توفى

664هـ - 1266م)، والطوسى(ت 672هـ - 1274م)، وقطب الدين الشيرازى(ت 710هـ - 1311م)، وابن الشاطر(ت 776هـ - 1375م)، أنشأه المغول سنة 657هـ - 1259م وضم مكتبة قوامها 40 ألف كتاب، علاوة على مسبك لصب آلات القياس النحاسية بعد إقناع العلماء العرب لهم، ثم قاموا بالإنفاق عليه، وهو ما كان فى نظر ابن تيمية كفرا، وخروجا عن الدين من هؤلاء الفلكيين الأفذاذ الذين أظهروا التعاون مع المغول حتى بعد أن أسلموا، فربما كان هذا الفقيه يجهل، أو يتجاهل أن شطرا كبيرا فى المسلمين تعاونوا مع المغول قبل، وبعد سقوط بغداد لسد رمقهم، وأنهم كانوا يفضلون التعامل مع الكفار بدلا من التعامل مع سادتهم المسلمين الذين لم يكفوهم ذلك، فضلا عن بخسهم، وأكل حقوقهم إذا ما قاموا بخدمتهم..

وقبل مرصد مراغة كانت منظومة المراصد الكبرى فى الإسلام فى جنديشابور أيام المأمون فى القرن الثانى الهجرى(الثامن الميلادى)، وأرصاد أبناء موسى - بصفة فردية - فى القرن الثالث الهجرى(التاسع الميلادى) فيما بين نيسابور شرقا، ودمشق غربا، وأرصاد أصفهان، والرى، والقاهرة فى القرن الرابع الهجرى(العاشر الميلادى)..

وكان مرصد أصفهان أول مراصد وسط آسيا فى الإسلام فى عهد مُلكشاه(485 - 564هـ)(1092 - 1168م)، ومرصد ألغ بك بسمرقند الذى تأسس سنة(826 - 832هـ)(1422 - 1428م) بتمويل ذاتى من حاكم سمرقند فى وسط آسيا(1409 - 1449م)، وهو من الأسرة التيمورية، واستمر حتى سنة 1500م، ومرصد الخجندى بالرى الذى قام بتصميمه، بتمويل من فخر الدولة، ومول البويهيون، ووزراؤهم برامج الرصد فى الرى، وأصفهان، وشيراز، كما مول الفاطميون أرصاد القاهرة..

٤ - المدارس النظامية الفقهية ذات المذهب الواحد:

نشأت المدارس فى الإسلام منذ القرن الحادى عشر الميلادى(الخامس الهجرى) - وقد يكون قبل ذلك - كمؤسسات خيرية، ووقفا دينيا تنفذ فيه رغبات المؤسسين التى كانت دينية فى الأساس، وكان صاحب الوقف يمكنه تعيين نفسه، أو وريثه مديرا، أو أستاذا فى الشريعة تعيينا دائما، ولذا فقد كانت مدارس فقه دائما، تركز فيها التعليم حول العلوم الدينية على حساب الفلسفة، والعلوم الطبيعية وحتى علم الكلام، وكان منها الكثير الذى تمثل مذهبا معينا تقبل على أساسه طلاب

العلم..

وكانت أموال الأوقاف تستخدم فى صيانة المبنى التعليمى، ودفع راتب الأستاذ، ومدير الوقفية، ثم التلاميذ بعد ذلك، وكان الغزالى من نتاج هذه المدارس الوقفية هو، وأخوه حيث نالا تعليمهما فيها فضلا عن الإعاشة، والسكن..

وكانت المدارس تلحق بالمساجد، ويعيش فيها التلاميذ عادة، ويدرسون الفقه إلى جانب القرآن، واللغة، والنحو، وعلوم الحديث، ولم تكن لهذه المدارس مناهج محددة للدراسة؛ بل كانت تتبع ميول الأستاذ، أو الشيخ ونبوغه فى أحد العلوم الشرعية دون الأخرى..

وعندما كان الأستاذ، أو الشيخ يرى أن تلاميذه قد أتقنوا حفظ المخطوطات فى أى علم شرعى، وأجادوا نسخها؛ منحهم «الإجازة»، وهى تفويض منه بتدريسها بصفته الشخصية فقط، وليس بصفته أحد أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة، دون أى ضوابط، أو معايير متفق عليها فى المدرسة، وعندما يجيز الشيخ تلميذه يصبح «مرافقا»، ومن المعاونين له مما يعتبر تبديدا للمواهب، وليس لأى شخص آخر فى الدولة، والقائمين عليها سلطان على هذا الشيخ، أو الأستاذ، ولا حتى صاحب الوقف نفسه، ولا الحكم على كفاءته العلمية..

وقد أدى هذا النظام من عدم وجود إشراف مؤسسى خارج الميول الشخصية للشيخ، أو الأستاذ فى مجالى الفقه، والطب إلى انتشار الشعوذة، والدجل، والخرافات، بعد توقف الاجتهاد، والابتكار..

لم يكن للدولة، والحكم فى الدول الإسلامية سلطة إلا على قاضى القضاة الذى كان فى العادة فقهيا مشهودا له بالكفاءة، يعينه الحاكم، وهو يتبعه مباشرة، ربما لضمان نوعية الأحكام الشرعية التى تناسب نظام الحكم، بمعنى ضمان عدم استنباط، وتطوير الشريعة لإجراءات قانونية، أو صيغ ملزمة يمكن بموجبها مساءلة الحاكم، أو الأمير، أو صاحب الدولة الذى بدا عبر التاريخ الإسلامى وكأنه فوق القانون، وبالتالى فوق الشريعة..

إن العلماء المتميزين كانوا هم المتمكنين من العلوم الإسلامية، وحصلوا على معرفة تفوق المعرفة السطحية بالعلوم القديمة، وحينها يصبحون هدفا سهلا للسلفيين، والأصوليين الذين كانوا إما يجهلون العلوم الأجنبية، وإما يعرفونها ويلعنون طلبها..

اتخذ النشر شكل الإملاء للتلاميذ، والإذن للنساخ بتداول الكتاب، والتكسب منه، ولم تكن تجرى عملية مراجعة للكتاب المنشور..

اعتمد النموذج الدراسى الإسلامى فى المدرسة على نقل المعرفة الموثقة بسلسلة الرواة، وعلى

حفظ أمهات الكتب دون انتقاء، أو تصحيح، وقد عزا الكثير من دارسى الحضارة الإسلامية ركود هذه الحضارة، واضمحلالها إلى تصلب الفكر الذى نتج عن الحفظ الأعمى للنصوص، والالتزام الشديد بما قاله الأولون دون تمحيص، وكان التركيز الزائد على الحفظ، وعلى ما يرافق ذلك من افتقار للفهم لما جرى تعلمه عيبا من عيوب التربية فى المجتمعات العربية حتى أوائل القرن العشرين..

ومن هنا كان للتعليم النمطى فى الإسلام دوره فى جمود العقلية الإسلامية؛ إذ قيدها بقوالب لم تحد عنها لمئات السنين، فلم يتغير هذا التعليم منذ القرون الوسطى، فهو تعليم سلطوى موجه له قداسة الأوامر الإلهية، فلا يُسمح فيه بالتساؤل، أو الاعتراض على الأفكار المطروحة، فهى مسلمات لا يجوز مناقشتها، ويعتمد هذا التعليم على قوة الذاكرة، والحفظ، ويتحدد نبوغ الطالب بمدى حفظه، واستظهار هذا الحفظ؛ فيتوجه عقل الطالب نحو الاستقبال السلبى، وهو تعليم محدد لا يختلف كثيرا مهما تمادى عليه الزمن لأن هدفه الذوبان فى المجتمع المسلم الذى لا يرى إلا نفسه، وبالتالى فهو فى عداء دائم، ومستتر مع الآخرين الذين هم دونه حتى لو شاركوه الوطن، وطريقة الحياة الواحدة فى المجتمع..

إن المذهبية، والمدرسية فى أطوارها الأولى مفيدة فى أول المراحل الفكرية من سن الشباب؛ بما توفره من التزام، وانضباط، ولكن إذا تجاوز هذه الفترة العمرية فهى تؤدى لا محالة إلى التقوقع، والتحجر، والتشبث بالرأى، ورفض الآخر، وتصبح سجنا ذهنيا يعوق تطور المجتمع، ورفض التجديد، والابتكار..

عندما دخل الأيوبيون مصر بعد الفاطميين؛ حولوا الأزهر من مذهبه المالكى إلى المذهب الشافعى، ومن الاعتقاد السنى العام إلى المذهب الأشعرى، وكان الدور الأكبر فى ذلك لشيخ صلاح الدين «قطب الدين أبو المعالى مسعود النيسابورى» أحد خريجى المدرسة النظامية بنيسابور، وهى عقيدة صلاح الدين، وأولاده..

5 - المكتبات:

أسس أبو جعفر المنصور دار الحكمة، أو بيت الحكمة فى بغداد، وتمت توسعتها فى عصر هارون

الرشيد؛ فكانت مقرا للدرس، والمطالعة، والمناظرة، ضمت مرصدا فلكيا، وظلت كذلك حتى نهبها المغول، ودمروها أثناء غزو بغداد سنة 656هـ - 1258م، كما انتشرت المكتبات فى أنحاء بغداد إبان حكم العباسيين حتى بلغت 100 مكتبة..

وفى القاهرة أنشأ الفاطميون دار الحكمة، أو دار العلم سنة 395هـ - 1004م، وكانت مكتبة قصر العزيز بالله نواتها الأولى بما حوت من كتب بلغت 1600000 كتاب، وضمت قاعات للمطالعة، وأدوات الكتابة من حبر، وورق، وأقلام من أجل النسخ، وظلت هذه المكتبة حتى نهاية الدولة الفاطمية سنة 567هـ - 1171م فبيع جزء منها، ونهب الباقى فى عصر صلاح الدين الأيوبى..

وفى قرطبة أنشأ الأمويون مكتبتها العامرة، والتى بلغت أوج ازدهارها فى عصر المستنصر الذى جلب لها الكتب من أرجاء الشرق الإسلامى حتى تجاوز عدد الكتب400 ألف مجلد..

ولم يقتصر أمر الكتب، والمكتبات على الدولة، والحكام بل تعداه إلى مكتبات المساجد، والقصور، والدور، والوراقين، والنساخ والتى كان الكثير منها متاحا للمطالعة العامة..

الكهانة وسلطة الكنيسة فى أوروبا:

تحكمت الكنيسة فى أوروبا طيلة الألف عام، فقد أصدرت المحاكم الدينية عشرات الآلاف من الأحكام بالتعذيب حتى الموت على المشتبه فيهم ممن يرمونهم بالسحر، والخروج عن الدين(الزندقة، والهرطقة)، فكان المتهمون يُربَطون إلى الخيول لتمزيق أجسادهم، أو تُنزع أحشاؤهم، أو يُشنقون، أو يُحرقون وهم مشدودون إلى الخوازيق حتى الموت..

وحتى الموت لم يكن حائلا دون العقاب إذا رأت الكنيسة عقاب المشتبه فيه بعد الموت بأثر رجعى، فبعد أن فحص رئيس أساقفة كنائس أيرلنده جيمس أوشر James Ussher (1581-1656م) الإنجيل؛ خلص من هذه الدراسة إلى أن بداية خلق العالم كان فى التاسعة من صباح الأحد الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 4004 ق.م.، وعلى ذلك تم الحكم على الجيولوجى «جون وايكلف» باستخراج رفاته، وتفتيت ما تبقى من عظامه، وحرقها، وإلقائها فى مياه الأنهار، والبحار حتى لا تظل الأرض ملوثة بزندقته، وجراثيم أفكاره، وشكوكه، حيث إنه خالف الكتاب المقدس بادعائه أن عمر الأرض يقدر ببضعة آلاف من السنين بناء على أدلة الحفريات الجيولوجية..

فلم تعترف كنيسة القرون الوسطى بعلم الجيولوجيا، وكانت تصفه «بالفن الأسود»، و«المدفعية

الشيطانية»، وأعلنت أن الجيولوجيين فسقة، وخونة، ومكذبون للسجل المقدس، وذلك لما أظهرته حساباتها المتعلقة بعمر الأرض، وتكذيب حسابات أوشر رئيس الأساقفة، فقد تنكر الجيولوجيون للنصوص المقدسة باستحالة خلق الكون فى ستة أيام، كما دخلت الكنيسة فى صراع مرة أخرى مع رواد علم الآثار المصرية؛ بعد أن استطاع شامبليون قراءة رموز الكتابة المصرية القديمة، واكتشاف امتداد التاريخ فى قلب حضارة المصريين القدماء على ضفاف النيل لآلاف السنين..

أقرت الكنيسة بأن الأوبئة مثل الجدرى، والكوليرا هى عقاب السماء، ورفضت بشدة التدخل البشرى بالتطعيم؛ فكيف تكون الأوبئة عقابا إلهيا على خطايا البشر ثم يقوم البشر بالتدخل لمنعه، أو الشفاء منه، فلن يتسبب ذلك إلا فى زيادة نقمة الله، فانطلقت الخطب المنبرية تشجب التطعيم، وتدعو إلى التصدى لأنصاره، ومن ثم فقد قام المتحمسون بإلقاء القنابل المشتعلة داخل منازل هؤلاء الذين استعانوا بأطباء التطعيم..

اصطبغت المياه فجأة فى أجزاء كثيرة من أوروبا باللون الدموى الأحمر حوالى سنة 1770م، وعلى الفور أشارت الكنيسة إلى أن هذه الظاهرة سببها غضب الله الشديد، وعندما امتدت الظاهرة إلى السويد تقدم العالم «لينياس» لفحص المياه الحمراء، وأعلن وجود كميات غزيرة من حشرة دقيقة حمراء اللون، وعندما علم أسقف الكنيسة بنتيجة هذا الفحص رفضه، واستنكره، وعزاه إلى الأفكار الشيطانية التى تتقمص هؤلاء العلماء، فلا يمكن أن يكون احمرار الماء لأسباب لها علاقة بالطبيعة، فاضطر لينياس إلى التراجع عن اكتشافه العلمى، وأعلن أن الحقيقة أبعد عن قدرته على الفهم اتقاء لشر الكنيسة، ونجاة من الموت المحقق..

روجت الكنيسة أن عمل المذنبات(الأجرام السماوية ذات الذيل الملتهب) ماهى إلا كرات من اللهب يقذفها الله عند غضبه على العالم الشرير، فألزمت أساتذة الفلك بالقَسَم على الامتناع عن تدريس تلك المذنبات؛ كأجرام سماوية تخضع لقوانين الطبيعة حتى نهايات القرن السابع عشر الميلادى، إلا أن العالم الفلكى «هاللى» رصد مسار أحد هذه المذنبات(الذى تَسمى باسمه بعد ذلك) مستخدما نظريات «نيوتن»، و«كبلر»، وتنبأ بعودة هذا المذنب للظهور مرة أخرى بعد 76 عاما، ونشر نتائج أبحاثه هذه سنة 1705م، وبعد وفاته، ومرور 76 عاما ظهر المذنب مرة أخرى كما تنبأ بالضبط، بعد أن اعتُبر كلامه خرافة فى ذلك الوقت..

استغلت الكنيسة ظاهرة الصواعق فى أوروبا؛ فكان خطابها الدينى يركز على خطايا تحدث بسببها هذه الصواعق وهى عدم التوبة، وإهمال الكنائس، وغير ذلك من الأسباب الدينية، ولهذا

أسموها «أصبع الله»، ولكن «بنيامين فرانكلين»(اشترك فى وضع الدستور الأمريكى) أطلق طائرته الورقية أثناء إحدى هذه العواصف سنة 1752م للكشف عن الطبيعة الكهربية لهذه الصواعق، فابتكر القضبان المعروفة «بموانع الصواعق»، فرفضت الكنيسة الاعتراف بها حتى دمرت الصواعق 400 برج من أبراج الكنائس، ومات 120 من قارعى الأجراس، بينما صمد أحد بيوت الدعارة الذى استخدم مانع الصواعق..

واشتملت سلطة البابا فى القرون الوسطى على:

- التزام الكنيسة حرفيا بأصول ممارسة الطقوس الدينية فيما يتعلق بكل مظاهر الحياة من طعام، وشراب، وجنس، وزواج، الخ..

- تسليم الناس الكامل بمعتقدات الكنيسة غير القابلة للتساؤل..

- رفض، أو نقض معتقدات الكنيسة يترتب عليها انهيار شامل لمنظومة المعتقدات الكنسية..

- العلم، والتفكير الحر عملا شيطانيا لابد من تحريمه، والوقوف ضده..

كان الدين فى العصور الوسطى مسخرا لإخضاع الملايين للمستبدين من الإقطاع، ورجال الدين..

جاءت عصور كانت للكنيسة أملاك، وجيوش، وسلطان لا يقل عن أملاك الملوك وجيوشهم، وسلطانهم فى أوروبا، وفى أوروبا أيضا ظلت الكنيسة سلطة مقدسة تملك رقاب الناس فى الدنيا، والآخرة بصكوك الغفران، وقرارات الحرمان، ومن خلفها محاكم التفتيش تقتل، وتحرق كل من يرفع رأسه ليُتهم بالزيغ، والإلحاد..

نشأت أجيال من العلماء، والمفكرين تكره الكنيسة، وتحتقرها، وتكن فى نفوسها العداوة، والاشمئزاز للدين، ورجال الدين..

يقول سيد قطب:

- «فى بعض العهود حاول السلاطين(المسلمون) إقامة هيئة دينية يستخدمونها فى الإفتاء لصالحهم، مثل أكليروس الكنيسة ولكنه ليس من الإسلام»..

ويدعى سيد قطب أنه بعد الثورة الصناعية، وتراكم رؤوس الأموال فى يد طبقة معينة كانت ضد طبقة العمال؛ وقفت الكنيسة بجانب أصحاب الأموال ضد العمال..

obeikandl.com

مقارنة النظام الكنسى بالنظام الإسلامى فى العصور الوسطى:

أما الفرق بين الكنيسة، ورجال الدين الإسلامى فى العصور الوسطى هو تدخل الكنيسة مباشرة فى حياة المواطن دون الرجوع إلى الملك الذى كان خاضعا أيضا لمعتقدات الكنيسة، أما رجال الدين فى الإسلام فقد استعانوا بالسلطان للتدخل فى حياة الناس، وكانوا يسمحون لأنفسهم بالتدخل مباشرة دون الرجوع للسلطان بالاستعانة بشحن الغوغاء، وتسليطهم على من لا يرضون عنهم؛ تماما كوسوسة الشياطين..

أقرت الكنيسة الفلسفة التى تتفق مع الكتاب المقدس، فاختارت فلسفة أرسطو المادية إلى جانب الكتاب المقدس، فكان لدى الكنيسة تصور مادى للكون يطابق الكتاب المقدس، واستراحت الكنيسة إلى هذا التواؤم، وحاكمت كل من خالف هذا الاتجاه، ولما اجتاحت الكنيسة رياح الإصلاح هبت عليها من الداخل، من رجال الكنيسة نفسها، ولم تستسلم إلا بانفصال أجزاء منها شكلت كنيستين إحداهما بروتستانتية، والأخرى إنجليكانية فى إنجلترا، ومن داخل الكنيسة أيضا نشأت المعارضة لفلسفة أرسطو، وسيطرته على التفكير، ووضعه فى الإطار النظرى الاستاتيكى، بينما الكتب العربية الإسلامية التى جلبوها من الشرق تطمح إلى العلم التجريبى، والتفكير الديناميكى، أما رجال الكهنوت الاسلامى الذين فرضوا أنفسهم بقوة سلاطين الدولة فقد قاموا بهدم الفلسفة – أى فلسفة – ومحوها نهائيا من العقل الاسلامى الذى تولوه بالتجريف، والنحر، وحشوه بكم هائل من الروايات المتناقضة التى انحرفت به إلى متاهات الأوهام، والخرافات، والرعب القسرى من العقاب السلطانى الدموى فى الدنيا بتحريض الفقهاء، وتكفير القائمين عليها إلى الأبد..

أدى هذا الانتقاد للفكر الفلسفى النظرى إلى نشوء فلسفة جديدة تحض على العلم التجريبى، وهو الذى قامت على أساسه الحضارة الأوروبية رغم أنف الكنيسة التى احتفظت بالفلسفة، بينما قام رجال الكهنوت الإسلامى بهدم الفلسفة، وبالتالى العلوم التى قامت عليها..

يرجع د.عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن «الإلحاد فى الإسلام» إلحاد الصفوة العلمية، أو العقلية إبان الخلافة الإسلامية إلى إنكار النبوة، وبالتالى إنكار الرسالة كلية، وتمسكهم بحرية العقل، والانطلاق إلى آفاق الفكر، والابتكار الحر، ونبذ الروحانيات التى تطير بهم فى السماء، وترجئ سعادتهم إلى الدار الآخرة؛ وهو مازال فى الحياة الدنيا الملتصقة بالأرض، والمحددة فى إطار خلقة

الإنسان من اللحم والدم، وليس الروح فقط، ويبرر د.بدوى هذا الاتجاه باستنفاد طاقاتهم الدينية فى القرون الثانى، والثالث، والرابع للهجرة، ويرى إيمانها بفكرة التقدم المستمر للإنسانية اعتمادا على العقل دون الرسالات، وثالثا إلى الارتفاع بالقيم الإنسانية الخالصة فى مقابل القيم الدينية المنزلة..

وهو ما حدا بالأستاذ محمد أحمد خلف الله أن يعرب عن هذا المفهوم فى كتابه «العدل الإسلامى»:

- «إن البشرية لم تعد فى حاجة إلى من يتولى قيادتها فى الأرض باسم السماء، فلقد بلغت سن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها»..ويقول:

- «فلقد حرر الإسلام العقل البشرى من سلطان النبوة؛ من حيث إعلان إنهائها كلية، وتخليص البشرية منها»..

قسم د. برويز فى كتابه «الإسلام والعلم» تاريخ العصور الوسطى الإسلامية إلى أربعة فترات رئيسية:

ما قبل عام 132هـ - 750م(فترة التكوين)..

من عام 750م إلى عام 390هـ - 1000م(الفترة العباسية التقليدية)..

من عام 1000م إلى 647هـ - 1250م(العصور الوسطى)..

من عام 1250م إلى 905هـ - 1500م(العصور الوسطى المتأخرة)..

ويطرح «أمير على» سؤالا مهما فى كتابه «روح الإسلام»:

- «لماذا مات العلم، والفلسفة بين المسلمين، وحلت محلهما السفسطة، واللاعقلانية؟»..وهو يرى العمل على إنقاذ الإسلام من الأئمة، والمجددين، وتحرير عقول المسلمين من قيود التفسيرات المحرفة، ويقول:

- «ساعد الإسلام، وعلى مدى خمسة قرون على تنمية الثقافة الحرة للبشرية، ثم جاءت حركة رجعية فتغير مجرى الفكر الإنسانى على الفور؛ حيث قررت هذه الحركة أن المنتمين للعلم، والفلسفة خارجون عن حظيرة الإسلام، فهل يمكن للكنيسة السُنية أن تتعلم درسا من كنيسة روما؟.. أم من المستحيل عليها أن تتسع بالمثل، وتتعدد جوانبها، ولا يوجد شىء فى تعاليم النبى صلى الله عليه وسلم يمنع ذلك، إن البروتستانتية الإسلامية فى إحدى صورها(المعتزلة) قد مهدت الطريق، فلماذا لا تتخلص الكنيسة السُنية الكبيرة من القيود العتيقة، وتنهض لحياة جديدة»..

obeikandl.com

ولم يسكت الفقهاء، ورجال الدين على ذلك - خوفا من قعودهم بلا عمل - فانطلقت فتاويهم القاتلة تصب جام غضبها عليه، وتتهمه كالعادة بالإلحاد، والكفر، وتمادى آخرون فأهدروا دمه..

ويبدو أن المسلمين المعاصرين عمليون فى ممارسة الحياة بصفة عامة، وربما المسلمون السابقون أيضا الذين يمثلون النسبة الغالبة - ولا يقفون كثيرا عند آراء الفقهاء، ومدعى الدين من هؤلاء الذين اتخذوا من الدين وظيفة لهم، ومن فشلوا فى مهنهم، أو تجارتهم فأرجعوا فشلهم إلى التمسك بالدين، والفوز بالآخرة، فيرى عامة المسلمين إبعاد الدين فى كل كبيرة، وصغيرة من مناحى الحياة العملية، والاهتمامات السياسية، والاقتصادية، والعلوم المدنية، وهم ربما اتفقوا مع الفقهاء؛ عندما لجأوا إلى قاعدة المصالح المرسلة فيما يتعلق بما جد على الحياة من نظم مستحدثة لم تكن موجودة فى زمن الوحى، وهى قاعدة لا يعلمها كثير من المسلمين فى خضم حياتهم العملية، ولكنهم يسيرون عليها حيث لا يجدون تناقضا بين الإسلام، وما يستجد من أمور الحياة التى يتقبلها المسلمون بتلقائية شديدة، ولا يرون الذهاب بها إطلاقا إلى الفقهاء المشغولين مثلهم بحياتهم العامة، فلم يسأل أحد عن جواز ركوب السيارة، والطائرة، أو التعامل مع البنوك، أو استخدام التليفون، أو مشاهدة التليفزيون، أو التنبؤ بالأحوال الجوية ـ وكذلك فعل الفقهاء المعاصرون ـ وتعاملوا مع هذه المستحدثات دون عرض على الدين، وربما تنطع البعض منهم حفاظا على المهنة من الاندثار، أو ذهاب هيئته الاجتماعية التى تميز بها - كراعٍ للدين - بين الناس المتدينين بطبعهم فشهروا سيف التحريم فى وجه الساعين على معاشهم، ومعاش من يقومون عليهم..

إن المدعين لمبدأ المؤامرة على الإسلام من الممكن أن نعدهم من دعائم تلك المؤامرة، فرغم محاولات الأفغانى، ومحمد عبده الإصلاحية لتجميع كلمة المسلمين من أجل تحررهم من الاستعمار الغربى المسيحى، والعمل على إظهارهم الإسلام فى موقف الند للحضارة الوافدة مع المستعمر قاهر المسلمين المتخلفين بهذه الحضارة؛ إلا أن هؤلاء قد اتهموهما بالتحاقهما بالمحفل الماسونى المصرى فى ذلك الوقت، أما منظِّر الإرهاب فى مصر سيد قطب الذى كان فى الأصل ماسونيا ملحدا، وساهم فى إثراء صحيفة المحفل الماسونى المصرى اعتبروه من المجددين فى الإسلام، وكذلك الماسونى الآخر الذى جاءوا به على رأس الإخوان الإرهابيين بعد مقتل البنا الساعاتى - ولم يكن منهم - اعتبروه من أقطاب الإسلام..

عصر النهضة الأوروبية:

أدى استعادة القانون الرومانى، والتراث اليونانى عن طريق الاتصال بالثقافة العربية الإسلامية الذى ظل مفقودا فى أوروبا لوقت طويل إلى ظهور النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر، وتجلى هذا فى مجالات القانون، والفلسفة، واللاهوت، والبحث العلمى بالتوازى مع النمو الاقتصادى السريع، كما لا يمكن إغفال دور الفلسفة فى مقابل الدين، والكتاب المقدس، بحيث إذا ناقضت العقل، والنظام الطبيعى فقرات منه وجب تحويرها، وعدم أخذها بمعناها الحرفى(مذهب ابن رشد؛ كما سنوضح فيما بعد)، ومن هنا جاءت الثقة بالعقل فى قدرته على تفسير الكتاب المقدس، وفهم الطبيعة - التى هى عقلانية فى الأصل - وتفسيرها حتى يمكن أيضا حل أسرار العالم الإلهى نفسه، دون الاعتماد على الوحى..

وما كانت النهضة الأوروبية إلا تحولات عرفتها أوروبا فى القرنين الخامس عشر، والسادس عشر الميلاديين شملت المجالات الفكرية، والفنية، والدينية، وانطلقت بداية من إيطاليا، ومنها إلى دول غرب أوروبا، وميزها ظهور الحركة الإنسية(الإنسانية)، ومحورها الإنسان الذى يجب أن تنفتح أمامه مجالات الابتكار، والتجديد، ورفض فساد الكنيسة، وسيطرتها عليه، وقد ساعد موقع إيطاليا المتوسط من أوروبا، وموقعها على البحر المتوسط فى قلب مراكز التجارة العالمية فأدى إلى ازدهار مدنها الساحلية مثل جنوة، والبندقية، ونابولى مما حفز التنافس بينها بظهور الأكاديميات، وإنشاء المكتبات، وتنافس العائلات الكبيرة فى هذا المجال فنيا، وعلميا، ودخلت الكنيسة بمالها من أملاك، ومصادر مالية كبيرة فى هذا المجال فتنافس بابوات الكنيسة فى روما مع الأسر الثرية؛ مثل أسرة آل مديتشى بفلورنسا فى تكريم الفنانين، وتشجيع الفنون مثل البابا نيقولا الخامس والبابا ليو العاشر، وعندما انتقلت النهضة الإيطالية إلى فرنسا كانت كلية اللاهوت فى السربون تقاوم الدراسات الأدبية، ودراسة القديم مما كان له الأثر فى تأخر النهضة فى فرنسا..

وقد تميزت النهضة بالانفتاح على الحضارة العربية والإسلامية، بعد انحسار موجة الحروب الصليبية التى دعمتها إيطاليا فى الغالب، كما ساعد اختراع المطبعة على انتشار هذه الموجة النهضوية؛ بعد اقتباس أوروبا للطريقة الصينية باستخدام الألواح الخشبية، وحفر الحروف عليها حيث طورها الألمانى «يوحنا جوتنبرج» سنة 1455م، وتعمل يدويا بحروف معدنية متنقلة، فقبل اختراع الطباعة فى الغرب بأربعمائة سنة؛ اخترع الصينيون حروف الطباعة المتحركة، والورق، وكان

بوسع العرب المسلمين الحصول على هذه التكنولوجيا الجديدة مباشرة من الصين؛ ولكنهم ـ على العكس - حظروا استخدام الطباعة حتى أوائل القرن التاسع عشر، حيث أدخلها الغربيون عنوة إلى بلادهم، بعد احتلالها عنوة أيضا..

كان من آثار عصر النهضة فى أوروبا الاهتمام البالغ بالدراسات الإغريقية اللاتينية، والعبرية رغم قلة عدد اليهود فى كل مكان من العالم، إلا أنهم الذين اهتموا بنقل التراث العربى المنسحب من بيئته إلى لغتهم العبرية، بعد المقاومة الشديدة لهذا التراث فى بلاده الإسلامية، فبعد القضاء على العلماء العرب اندثرت كتبهم الأصلية بلغتهم العربية، ثم ظهرت هذه الكتب فى خزائن أوروبا باللغة العبرية، فأصبح التراث العربى تراثا عبريا بفضل فقهاء الدولة الإسلامية الذين اعتبروا أن العلم الذى يحرم تعلمه، ونشره هو علوم الأوائل، وإلاهيات الفلاسفة، وأكثر رياضتهم، وعلم السحر، والسيمياء، والكيمياء، والشعبذة، والحيل، ورسائل إخوان الصفا..

انطلقت أيضا حركة الإصلاح الدينى من ألمانيا إبان عصر النهضة على يد «مارتن لوثر»(بداية من سنة 1517 وحتى وفاته سنة 1546)، اعتمد فيها على الكتاب المقدس كمستند وحيد للكنيسة، ومرجع للشئون الدينية، وهاجم احتكار الكنيسة لقراءة الإنجيل وتفسيره، واعتبر الإيمان مسألة شخصية تخص الفرد، وبالتالى فلا عصمة للبابا، والأساقفة، كما نادى بتبسيط الطقوس الدينية، وإلغاء الوساطة بين الإنسان وخالقه، ورفض عبادة الصور، والتماثيل، والتخلى عن عبادة القديسين، وعبادة مريم العذراء، ثم تلقى «كالفن»(1519 – 1564م) فى فرنسا هذه الدعوة حيث لجأ بعد ذلك إلى جينيف، وأسس فيها «جمهورية ثيوقراطية»(دينية)، وأنشأ كنيسة إصلاحية، وأكاديمية، واستهجن استخدام الآلات الموسيقية فى الكنائس، أما فى إنجلترا فقد قام بالإصلاح الدينى فيها ملكها «هنرى الثامن» بدوافع سياسية نشأت بسبب التنافس مع ملك إسبانيا «شارل الخامس» للتوسع فى أوروبا، والقارة الأمريكية الجديدة بمساندة البابا لإسبانيا دون إنجلترا، فانفصل الملك هنرى عن الكنيسة الكاثوليكية، وأنشأ كنيسة خاصة ببلاده أطلق عليها «الكنيسة الإنجليكانية» - مرجعها الكتاب المقدس - وأعلن نفسه رئيسها الأعلى..

وكان لوثر عنيفا، وشرسا فى معاملة البابا، والكنيسة الكاثوليكية، وتبادل الفريقان أساليب الهجاء فى قسوة حتى أحرق لوثر خطاب البابا بحرمانه من الكنيسة علانية، ووجد لوثر لدعوته أنصارا، ومؤيدين خاصة من هؤلاء الملوك، والأمراء الذين كانوا فى عداء مع الكنيسة الكاثوليكية، فقامت المذابح المذهبية، والفتن من أوائل القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، وقامت

الكنيسة الكاثوليكية بحركة إصلاح واسعة؛ لمواجهة انتشار البروتستانتية فى أوروبا خاصة إنجلترا، وألمانيا..

وفى عصرنا هذا بذرت الإمبراطوريات الاستعمارية الأصولية الإسلامية الحديثة؛ مستلهمة تراثها الذى أودى بالحضارة الإسلامية، وروادها فى فترة مبكرة، وأدركت أن وأد أى تقدم للمسلمين سوف يرتبط ارتباطا وثيقا بنمو هذه الأصولية، ودعمها ضد الحكومات التى تنبأت بظهورها بعد حركات التحرر السريعة، والناجحة، واستقلال الدول، وتميز القوميات، فظهرت فعلا مع «مصدق» فى إيران، و«عبد الناصر» فى مصر، و«سوكارنو» فى أندونيسيا، و«ذو الفقار على بوتو» فى باكستان، ثم تولت الأصولية الأمر بعد التخلص من هذه الحكومات - بكل الوسائل الممكنة - بالتعاون مع التيارات الرجعية فى المنطقة الإسلامية إلى يومنا هذا لإسقاط هذه الدول، والقوميات..

عصر التفوق الأوروبى:

الراهب الإنجليزى روجر بيكون أول من تحدث عن تجربته فى صنع البارود سنة 1242م عندما مزج نترات الكالسيوم بالكبريت، والفحم النباتى، وبالاشتعال حدث وميض مع صوت كقصف الرعد..

ولكن راهب آخر اسمه برثولد شوارتز فى مدينة فريبورج بألمانيا بعد مائة عام وضع هذه المواد فى أنبوبة من الحديد أغلق أحد طرفيها بإحكام، وترك ثقبا صغيرا ليدخل منه اللهب، ثم قطعة من الحجر فوقها ليقذف الانفجار بقطعة الحجر بعد الاشتعال، وهكذا اخترع برثولد شوارتز المدفع..

ثم جاء الإيطالى أسكانيو سوبريرو فمزج حامض النيتريك بالجلسرين وأوجد سائلا مركبا من نترات الجلسرين..

وقد ينصرف الذهن إلى جرائم الحرب التى ارتكبت بسبب هذا الاختراع الذى طوره الكيميائى السويدى الفريد نوبل - صاحب جوائز نوبل - بعد ذلك، ولكنه كان من الاختراعات التى أفادت فى عمليات التنقيب، واستخراج المعادن كالحديد، والألومنيوم، وكذلك الفحم من باطن الأرض، بعد أن كان الإنسان يحصل عليها بالعدد الوفير من الرجال الذين كانوا يقعون صرعى الحفر، والتنقيب، والاستخراج..

الألمانى أوتو ليلينتال صنع منزلقة(طائرة بلا محرك) على صورة ورقة النبات(قريبة الشبه من

الطائرة الورقية) ليندفع فى الهواء من أعلى التل، وقد طار فعلا وقطع فى بعض محاولاته مئات من الأقدام، ولكن هذه المنزلقة كانت تتجه مع الرياح حسب وجهتها، وتنقلب على أحد جانبيها وتسقط، وكان ليلينتال يتمايل بجسمه جيئة وذهابا أسفل الأجنحة ليتفادى الانقلاب(قارن مع ابن فرناس حيث سقط ليلينتال ميتا أيضا عندما سقطت منزلقته على أحد جانبيها فى جو عاصف)، وقد استفاد الأخوان رايت أواخر القرن التاسع عشر(ويلبور، وأورفيل فى دايتون من أعمال ولاية أوهايو الأمريكية) بهذه التجارب..

كان الرسم، والفن عاملان مهمان فى تكوين وجدان كثير من المخترعين المعروفين فى أوروبا، وأمريكا، حيث كانت الآلات تحتاج لمن يرسمها رسما جيدا، حتى أن مخترعى الآلات المعروفين كانوا فى الأصل رسامين، وانتقلوا برسمهم إلى رسم الآلات، والابتكارات، ويذكر المؤرخون الرسوم الكثيرة ليوناردو دافنشى أحد أعلام النهضة فى إيطاليا - على سبيل المثال - عن كثير من الاختراعات التى ظهرت بعد ذلك مثل الطائرة، والبواخر العملاقة وغيرها، كما كان الرسام الأمريكى روبرت فولتون من أبرز المخترعين فى القرن الثامن عشر، حتى إنه كان يبز الكثيرين من صانعى الآلات بما تميز به من الرسوم الدقيقة للآلات التى كان يبتكرها، والتى فتحت المجال لآخرين لابتكار آلات أخرى لأغراض كثيرة، كما كان المخترع الأمريكى صمويل فينلى بريز مورس فى الأصل دارسا للفن على يد بنيامين ويست الذى كان أستاذا لفولتون أيضا، بينما حرم الفقهاء، ورجال الدين فى الإسلام الرسم تحريما باتا، ووضعوا، أو نحتوا الكثير من الأحاديث التى تدعم مذهبهم، بالرغم من عدم تحريم القرآن له، بل ذكر القرآن أن سليمان الذى سخر له ربه الجن ليعملوا له ما شاء من التماثيل، والأساطين، وهو الذى كان نبيا مرسلا مكرما من الله تعالى بما آتاه من ملك لم يعطه لنبى، أو بشر بعده..

إصرار المسلمين على التخلف:

ويبدو أن كراهية العلم، والخوف منه، وما يتبعه من ميول لتنمية الفكر، وإدراك أن التكنولوجيا، والوسائل الحديثة ما هى إلا ناتج مباشر من نواتج التفكير العلمى لم يكن مقصورا على المسلمين العرب، ولكنه صار سمة فى كل المسلمين من مختلف الأجناس حتى وصموا الإسلام كلية بهذه الصفة البغيضة التى ما كانت تؤول إلى أتباعه لو فهموا مقاصده لا مقاصدهم، يقول جيسلين دى

بوسبك Ghiselin de Busbecq سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسطنبول عن العثمانيين الأتراك فى رسالة كتبها عام 1560م:

- «لا توجد دولة أكثر كسلا فى تبنى اختراعات الآخرين من هذه الدولة، فقد وافقوا على استخدام المدافع الصغيرة، والكبيرة، بالإضافة إلى عدد كبير من اختراعاتنا إلا أنهم لم يتمكنوا أبدا من طباعة الكتب، أو من تشييد ساعة فى ميدان عام، ويقولون إن كتبهم المقدسة ستفقد قدسيتها إذا طُبعت، وإذا ما أنشأوا ساعات فى الميادين العامة فيعتقدون أنها ستقلل من شأن مؤذنيهم، وطقوسهم القديمة»..

ولم تكن هذه هى المسخرة الوحيدة فقد صار المسلمون مسخرة الأمم عموما، فإذا كانت هذه هى نظرة الدولة الأولى فى بلاد المسلمين للعلم، وهى التى حكمت ثلث العالم القديم من المسلمين، فكيف كان حال باقى المسلمين المحكومين منها، ففى تقرير كتبه «مصطفى هاتى أفندى» عن زيارة وفد تركى رسمى للنمسا سنة 1748م دعا امبراطور النمسا الوفد لزيارة أحد مراصدهم الذى احتوى على أشياء عجيبة، يقول:

- «أما ثالث الحيل فكان أنابيب زجاجية سميكة رأيناهم يضربونها بالخشب، والحجارة فلا تنكسر، فوضعوا فيها قطعا صغيرة من أحجار الاشتعال فتهشمت الأنابيب، وأصبحت كالدقيق، ولما سألنا عن ذلك قالوا حدث هذا بتبريد الزجاج بعد تسخينه، وقد رأينا فى هذه الإجابة غير المعقولة نوعا من حيل الفرنجة»..

أما المسلمون المغول الذين حكموا الهند من عام 884هـ - 1480م إلى 1170هـ - 1757م، فرغم ما خلفوه من فن معمارى جميل؛ لم يسجل لهم التاريخ أى إنجازات علمية مظهرية مثل إنشاء الجامعات، والمراصد، أو تشجيع الفكر، والعلماء..

فى بداية القرن التاسع عشر اقترح الإنجليز أثناء احتلالهم للهند إدخال بعض العلوم الأوروبية الحديثة، والعلوم الإدراية، والحسابية فى مناهج التعليم، فاختلفت ردود أفعال الطائفتين الكبيرتين الهندوس، والمسلمين، فتحمس الهندوس بشدة للاقتراح، بل طالبوا الإنجليز بفتح مجالات أكبر للتعليم المدنى، وفى المقابل نظر المسلمون إلى المشروع بريبة شديدة، ثم تم رفض المشرع كلية، فربما كان الرفض نابعا من حساسية تاريخية بعد أن أنهى الإنجليز حكم المغول المسلمين فى الهند(وهم الذين كفرهم ابن تيمية قبل ذلك، وأصر على حربهم، وتحريض سلطان مصر على حربهم)، مما جعلهم لا يرون المشروع إلا حيلة لتدمير العقيدة الإسلامية..

وهم بهذا يثبتون تحجر العقلية الإسلامية التى تتشبث بخيالات الماضى، وعدم القدرة على تجاوزه، ورفض الواقع، وبالتالى فقد القدرة على تجاوز هذا الواقع، والخروج منه بأدوات الواقع نفسه دون المساس بالعقيدة، وهى التى تعرضت لكثير من الغربلة فى وجود النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بحادث الإسراء، والمعراج وغيره الكثير، حتى تعذيب المسلمين، والنبى بمكة، وهجرتهم ثلاث مرات خلال ثلاثة عشر عاما كان امتحانا للعقيدة، وهذا ما تحتاجه العقيدة من الله المطلع على العقيدة، فهو تعالى يريدها قوية وإلا فلا، أما أن يخاف المسلم عليها فهو بذلك يشغل دنياه بأعمال تكفل الله بها دونه، لأنه الوحيد الذى يعلم سرائر الناس، وما تخفى صدورهم، أما عمل المسلم فهو إعمار الأرض الذى يحتاج علما، ودراية..

آراء هرمان دى كسرلنج H. Kesserling التى استخلصها من دور الفكرة المسيحية فى تركيب الحضارة الغربية فيقول فى كتابه «البحث التحليلى لأوروبا»:

- «إن مركز الثقل للحضارة تزحزح عن مكانه، وتحول بالنهضة، والإصلاح الدينى من مجال الروح، إلى مجال العقل»..

ومن أقوال مالك بن نبى:

- «لقد ظل العالم الإسلامى خارج التاريخ دهرا طويلا كأن لم يكن له هدف، استسلم المريض للمرض، وفقد شعوره بالألم حتى كأنه يؤلف جزءا من كيانه»..

- «ففى الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعا لرأيه، أو مزاجه، أو مهنته، فرأى رجل سياسى كجمال الدين الأفغانى أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة، والوعظ، على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول فى الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أعراضه»..

- «وقد كانت النتيجة قريبة من تلك التى يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل الجرثومى، فلم يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما اهتم بهيجان الحمى عند المريض، والمريض نفسه يريد منذ خمسين عاما أن يبرأ من آلام كثيرة؛ من الاستعمار، والأمية، والكساح العقلى»..

- «والمريض لا يعرف حقيقة مرضه، ولم يحاول أن يعرفه، بل كل ما فى الأمر أنه شعر بالألم، فاشتد فى الجرى نحو الصيدلى يأخذ منه آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام»..

- «وليس هناك فى الواقع سوى طريقتين لوضع نهاية لهذه الحالة المرضية، إما بالقضاء على المرض، وإما بإعدام المريض»..

- «وهذا شأن العالم الإسلامى عندما دخل صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء، ولكن من أى مرض؟.. وبأى دواء؟.. فيجوز لنا أن نطلق على هذه الحقبة أنها (بادرة حضارة)»..

وهو يرى أن العالم الإسلامى قد تعاطى أدوية كثيرة من أدوية الحضارة الغربية ضد الفقر، والجهل ولكنه كما هو لم يبرأ من أمراضه، وفى عدد من السنين قامت فيها اليابان بتعاطى نفس الأدوية لنفس الأمراض، ومن بعدها روسيا، ثم الصين، وشفوا تماما، وأصبحوا يمدون الغرب من صيدليتهم..

وانطلق المسيحيون فى أرجاء الدنيا يصولون، ويجولون، ويحتلون أراضى المسلمين بمن عليها، ويسوقونهم كالقطعان بقوة السلاح، والعلم، ويبتزونهم، ويستغلون ثرواتهم بدون كاهن، أو رجل دين واحد أسلموا له قيادهم، وشريعتهم، وعلى قدر ما كانت سماحة العقيدة الإسلامية من منح الحرية للأفراد فى تفسير نصوصها الدينية، فقد كان لهذا اللانظام مساوئه فى تفرق كلمة الدين، وانفراط عقد التفسيرات إلى ما لا نهاية ما أدى إلى استحواذ الأفراد على السلطة بقوة السلاح، وادعاء الزعامة الدينية من القادرين على تحريك مشاعر الجماهير الدينية، وإثارة حماسهم بالأفكار الغوغائية دون الرجوع إلى سلطة دينية حاكمة فى غياب العمل المؤسسى فى بلاد المسلمين، والنظر إلى الدولة نفسها - كمؤسسة كبرى - كعمل شيطانى من حيل الكفار يجب الخروج عليه، وهدمه بتحريض من هؤلاء الكفار لهدم دولهم، وتخريب بلادهم..

نحى العلم فى أوروبا العصور الوسطى منحى علم الحديث الإسلامى، فهو العلم الوحيد الذى وجد تجاوبا فى أنحاء العالم الإسلامى، وقُبلت كل مقدماته، وفروضه، ونظرياته حتى صارت من المسلمات التى لا تنتقد، بل أصبحت من ثوابت الدين – تماما كالقرآن، وأكثر – فللقرآن رب يحميه، أما الحديث فهو عبارة عن مرويات تكاد تكون علما بشريا بحتا، أخذ قداسته من إقحام اسم النبى الكريم فيه..

ونحى الأوروبيون أيضا هذا المنحى، فلم ترفض نظرية، أو قانون علمى – رغم قوة الكنيسة وسيطرتها على مناحى الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية – فى ذلك الوقت حيث كانت دولة داخل الدولة، لها فرسانها، وأملاكها، وتستطيع حشد الجيوش الجرارة مثلما حدث فى الحروب الصليبية، وقد ظلت إلى العصر الحديث ولكنها تقلصت فى دولة الفاتيكان بروما التى عززت امبراطوريتها الديانة المسيحية فى بداية العصور الوسطى..

واكب هذا العلم تحرك دول أوروبا نحو الأراضى الجديدة، والقديمة، فعقدت الصفقات التجارية

مع القديمة، واحتلت الجديدة، واستنزفت ثرواتها البكر، ولاقت النظريات العلمية، والاكتشافات صدى كبيرا لدى الدولة حيث كانت فى حاجة إليها، واستطاعت استغلالها، وتطبيقها فى الحال مثل القاطرة البخارية، والبارود، والمدفع، وأخذ المسلمون جانبا باستخدام البارود فى حروب صلاح الدين مع الصليبيين، ومحمد الفاتح مع أوروبا خاصة النمساويين الذين أخذ منهم المدفع، وبعدها استكان المسلمون لقدرهم المحتوم، وناموا حتى يومنا هذا، بينما اتخذها الأوربيون منهج حياة..

وعلى الرغم من سبق بعض الدول الأوروبية مثل أسبانيا، والبرتغال لإنجلترا فى مجال الكشوف الجغرافية وارتياد البحار، إلا أن الحركة البريطانية فى الاستفادة من هذه الكشوف واكبت الثورة الصناعية التى قامت فيها لتستغل كل الأطروحات العلمية فى أوروبا كلها لصالحها..

بوادر الإصلاح الإسلامى فى العصر الحديث:

لم يقم الأفغانى(1838 – 1897م) ككثير من المجددين بمحاولة إعادة تفسير المعتقد الإسلامى، بل قدم الإسلام للمسلمين أنفسهم، وللعالم الغربى المسيحى – المحتل للعالم الإسلامى – كقوة موحدة ضد هذا المستعمر، وبث فى المسلمين روح الإحساس بعزة الإسلام - رغم انهزام المسلمين الحضارى – وشجع فيهم فضيلة المقاومة، ورفض الاستسلام لقوى الغرب المسيحى المحتل، وتحت ضغط رجال الدين السنة أبعد إلى اسطنبول عاصمة الخلافة الآيلة للسقوط سنة 1870م بجريمته الشنعاء – فى نظرهم – وهى تأييده «لدار الفنون» الجامعة الجديدة التى أنشئت لتدريس العلوم الحديثة، أما دولة الخلافة الإسلامية فقد نبذته بإيعاز من مشايخ الإسلام لديها لاكتشافهم أصله الشيعى الإيرانى، وكان الرجل متأثرا بأعمال فلاسفة الإسلام العقلانيين أمثال ابن سينا، وهى الأعمال التى حظرها الفقهاء باعتبارها من البدع، كما كان مفتونا بقوة العلم الحديث، وشديد الرغبة فى التعرف على أسرار قوة الغرب..

وهو ما يفسر اطراد التقدم العلمى الشيعى فى إيران هذه الأيام رغم حكم الملالى، وآيات الله من رجال الدين، والأئمة المتحكمين فى الشيعة عموما، وديمقراطية شكلية كديمقراطيات الغرب، وإسرائيل من تدوير للسلطة، وعدم النزاع عليها تاركين للسنة أسباب التخلف المزمن، والاعتماد المرضى على الفرنجة الكفار، ليصيروا مستهلكين فى طور الطفولة لمنتجات حضارة وصموها بالكفر، والانحلال، ويعانون من فصام الخوف العُصابى، وقد منحوا هؤلاء الفرنجة الكفار ثرواتهم الطبيعية

يستغلونها كما يشاءون بأبخس الأسعار، ثم يردون إليهم ما أنتجوه من هذه الثروات بأبهظ الأثمان، وإذا ما تجاسروا على الاعتراض لهذا الابتزاز سلطوا عليهم إسرائيل المزروعة فى قلب أراضيهم الواسعة، لتقوم هى الأخرى باستقطاب طائفة منهم باسم حماية الدين فيسلطونهم عليهم مثل داعش وغيرها من الجماعات الإرهابية التى تضم بين رجالها، والمحاربين معها متطوعين من الغرب المسيحى بمباركة حكوماته..

من محاضرة له فى كلكتا بالهند سنة 1882م يقول الأفغانى:

- «وإذا أنا أقول إذا أمعن الإنسان فى السؤال سيرى أن العلم يحكم العالم، فلا يوجد حاكم فى العالم لا بالأمس، ولا اليوم، ولا فى المستقبل إلا العلم، إن فوائده لا تحصى»..ويقول فى نفس المحاضرة:

- «لم يكن لدى المسلمين الأوائل أى علم، ولكن بفضل العقيدة الإسلامية ظهرت الروح الفلسفية بينهم، لهذا وفى وقت قصير اكتسبوا كل العلوم التى ترجموها من السريانية، والفارسية، واليونانية إلى اللغة العربية»..

وينتقد فقهاء المسلمين:

- «لم يتساءلوا يوما عن الكهرباء، أو المراكب البخارية، أو السكك الحديدية، إن فقهاءنا الآن كمثل فتيلة رفيعة تحمل لهبا خافتا جدا لا يضىء حوله، ولا ينير الطريق للآخرين، أما أعجب الأمور جميعا فهو أنهم قسموا العلم إلى قسمين؛ الأول يسمونه علما إسلاميا، والآخر يسمونه علما أوروبيا، وهكذا يمنعون الآخرين من تحصيل العلوم النافعة»..

يقول مالك بن نبى:

- «إنه صوت جمال الدين الأفغانى موقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة، ويوم جديد».. ويقول أيضا:

- «نبذت(الشعوب الإسلامية) النرجيلة، والطربوش، والحرز، والزردة(الوليمة، أو ما يطلق عليها العوام الفتة)، ولقد بلغ تأثير تلك القوة الفعالة الجزائر، فأخذت منها بنصيب»..

وعلى النقيض حرك الصدام الحضارى الأفق الثقافى الإسلامى لتتجاوب أصداؤه فى جنبات العالم الإسلامى بعد حرب السباى(1858م) فى الهند بتأسيس «جامعة عليكرة»، من أجل اللجوء مرة أخرى إلى الكهف، والاستكانة إليه، والحنين إلى أيامه، وشجونه، وعلى الضد منه – على يد جمال الدين الأفغانى – من الدعوة إلى الأخذ بالعلوم، والفنون الحديثة، واستيعاب المسلمين للحضارة

الغربية – على يد تلميذه محمد عبده – على أساس رؤيتهما للإسلام كدين لكل زمان، ومكان، بما له من قدرة على استيعاب هذه الحضارة الجديدة، وهضمها تماما، وعلى أساس النظرة التاريخية وهى أن الأديان نزلت لتنفخ الروح فى الحضارة، وليس العكس، بمعنى احتياج الحضارة للدين، وليس العكس كما جاء فى القرآن، فبدا الاتجاه الأول كمدمن يبحث دائما عن وسائل إشباع إدمانه، حتى يظل منفصلا عن الواقع فى عالمه الافتراضى(الذى فرضه على نفسه فى كهفه)، لأنه يرى أن فرائض دينه لا تصح إلا فى الكهف، والاتجاه الثانى يريد أن يعالج نفسه من هذا الإدمان، ووسائله، والطرق التى تؤدى إليه بالانطلاق، والابتعاد عن الكهف، وظلمته، ويرى أنه يستطيع ممارسة شعائر، وأخلاق دينه فى الهواء الطلق بعيدا عن الكهف..

ومن أجل هذا الكهف الملعون يقول د. عبد الحليم محمود(أحد مشايخ الأزهر فى العصر الحديث) فى كتابه «الإسلام والعقل»:

- «وكل من نهج النهج العقلى فى الدين فى العصر الحاضر إنما هو نابع من أتباع المعتزلة، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده إنما هى مدرسة اعتزالية فى غاياتها، وأهدافها»..

يقول د.برويز فى كتابه «الإسلام والعلم»:

- «ولقد شهدت فترة ما بعد الاستعمار ظهور العديد من العلميين العمليين مثل الأفغانى كزعماء شعبيين فى العالم الإسلامى، فكان من هؤلاء من دعوا شعوبهم للحركة، والعمل بدلا من مجرد الإعجاب بالإسلام؛ كل من «محمد على جناه»، و«جمال عبد الناصر»، و«أحمد سوكارنو»، و«الحبيب بورقيبة»، و«ذو الفقار على بوتو»، وحتى «صدام حسين»، ورغم أن تصاعد التوجهات الإصلاحية المنادية بإعادة البناء تبدو الأكثر وضوحا فى الإسلام المعاصر؛ فمازال المسلمون العلميون العمليون يمثلون الأغلبية، إن فشل الأحزاب الأصولية فى الانتخابات فى العديد من الدول الإسلامية ليشير بقوة إلى أنه فى حال وجود بدائل فإن غالبية المسلمين لن يقبلوا بالأشكال الأصولية للعقيدة»..

وفى كتابه «الإسلام والعلم» يحاول د. برويز الإجابة على السؤالين:

- ماهى أسباب انهيار الحضارة الإسلامية؟..

- ولماذا لم تنجب العلم الحديث بدلا من أوروبا مع أنه ابنها الشرعى؟..

- «بدلا من إرجاع أسباب الانهيار إلى سبب واحد سأبدى ملاحظة يبدو أن لها سندا قويا من التاريخ؛ حيث تزامن انهيار العلم فى الحضارة الإسلامية مع تصاعد التيارات الدينية المتكلسة التى أعاقت وجود المؤسسات المدنية، واستمراريتها، وهذا لا يعنى تحديد رد الفعل الأصولى ضد العلم

كسبب منفرد؛ خاصة أنه لا يمكن استبعاد العناصر الاقتصادية، والسياسية من المشكلة، لكن من المؤكد أنه بتعالى أصوات عدم السماحة، والتعصب الأعمى تراجعت العلوم المدنية أكثر فأكثر حتى انتهى العصر الذهبى للنبوغ الإسلامى فى القرن الرابع عشر الميلادى، وتحول صرح العلم الإسلامى إلى أنقاض، ثم صارت الحضارة الإسلامية من حينها وجودا لزجا متشبثا بماضيه الذى كان يوما ما رائعا، وجديدا»..

obeikandl.com